الفصل الثانى

كيف يدون المؤرخ التاريخ

تحدثنا فيما تقدم عن المذاهب التاريخية فى كتابة التاريخ ونؤثر أن نتحدث هنا عن صفات المؤرخ وحسبنا أن نستشهد برأى أدولف تيير A. Thiers (١٧٩٧): (١٨٧٧) الذى كان كبار رجال الدولة فى فرنسا كما كان من كبار مؤرخيها ابتدأ حياته بالعمل فى المحاماة بمدينه إكس ثم غادرها الى باريس إذ اشتغل بالصحافة فأصدر ال « ناسونال » سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك بعامين ساهم مساهمة قوية فى اعادة النظام الملكى وتولى الوزارة بل رياسة الوزارة مرات كما انتخب للنيابة فى البرلمان . وفى سنة ١٨٧٠ عارض بقوة فى اعلان الحرب على ألمانيا وبعد الهزيمة اختير رئيسا للحكومة ثم رئيساً للجمهورية بانتخاب الجمعية القومية سنة ١٨٧١ ولقد اتصل اسمه بتحرير فرنسا . ولكن ذلك لم يمنع الملكيين والمحافظين من أن يتآمروا لتنحيته عن الرياسة فتركها فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧١ . ومات تيير والنظام الجمهورى الذى وضع أسسه يستقر شيئا فشيئا ويقول « محمد مندور المحامى » إن رجلا كهذا عرك الحياة العامة وبلى أسرارها يستطيع أن يجيد فهم التاريخ ، فيقدر العوامل المختلفة التى تعمل فى تكوينه كلا منها قدره الحق . ولقد ترك تيير كتابين كبيرين : أولهما عن « تاريخ الثورة الفرنسية » فى عشرة أجزاء . وثانيهما عن تاريخ « القنصلية والامبراطورية » فى عشرين جزءا . وفى كتابه الاخير

صفحات عميقة عن الصفات التي يجب أن تتوفر في المؤرخ ومن بينها مايجمل بكل مواطن أن يتخذ منها حلية لروحه . وهاهي تلك الصفحات.

١ - العناية بالبحث : هاأنا أنتهي - بعد خمسة عشر عاما أمضيتها في العمل المتصل من تاريخ « القنصلية والامبراطورية » الذي ابتدأته عام ١٨٤٠ - ولم أترك سنة واحدة من هذه الخمس عشرة تمر دون أن أخصص كل وقتي لهذه المهمة الشاقة - وذلك مع استثناء تلك السنة (١٨٥١) التي قضت أحداث السياسة أن أعيشها خارج فرنسا (منفياً عند تولي نابليون الثالث). وأنا أرى بأنه من الممكن أن نعمل بأسرع من ذلك ، ولكنني أحمل لرسالة التاريخ احتراما بالغاً ، حتى إن خوفي من أن أقرر حقيقة غير ثابتة ليملؤني حزنا . ولهذا لايقر لي قرار حتى أكشف الدليل على صحة الواقعة التي يساورني فيها الشك فأبحث عنه حيث يمكن أن يكون ، ولا أقف حتى أجده أو أطمئن إلى أنه غير موجود . وعندئذ أضع نفسي مضطراً موضع الحكم فأقضي بإملائي الداخلي مع رهبتي الدائمة من الخطأ . وذلك لأنني لاأرى - حين مايأخذ المرء نفسه بأن يقول للناس الحقائق عن حوادث التاريخ الكبيرة - أنه أكبر من أن ينكر تلك الحقائق لضعف ، أو يشوهها لهوى ، أو يفترضها لكسل ، أو أن يكذب بوعي أو غير وعي على جيله وعلى الأجيال اللاحقة . وتحت سلطان هذه الوخزات قرأت مرة ومرتين ، وعلقت يدي على الوثائق التي لاتحصى المودعة محفوظات الدولة ، الثلاثين ألف خطاب التي تؤلف مراسلات نابليون الخاصة ، ثم خطابات وزرائه التي لاتقل عنها عدداً ، وخطابات قواده وأركان حربه . بل رجال البوليس ثم معظم المذكرات المخطوطة التي تحتفظ بها الأسر في بيوتها

ومن واجبي أن أقر بأنني قد لاقيت من جميع الحكومات - وقد مرت بي ثلاث منذ أبتدأت كتابي - التسهيلات نفسها والكرم نفسه في مدى بالوثائق التي كنت في حاجـــة اليها - وحتى تحت حكم حفيد نابليون لم يحجبوا دوني أسرار السياسة الامبراطورية كما لم تحجبها الجمهورية أو الملكية الدستورية وهكـذا استطعت أن أصل لا الى تلك الحقيقة المصطنعة التي تخلقها عادة الاجيال اللاحقة بل الحقيقة الحقة، حقيقة الوقائع ذاتها التي لا تجدها الا في وثائق الدولة وبخاصة في مراسلات كبار الرجال. وهكـذا كنت أمضي أحيانا عاما كاملا في إعداد مجلد كتبته في شهرين. ولقد أرضى هذا الجمهور الذي تفضل فعلق أهمية على نتائج أبحاثي.

٢ ـ بساطة العبارة: من الحق أن أقرر أنه قد استقرت في نفسي الى جوار هذا التحرج رغبة في أن أستقصي البحث عن الطريقة التي أخذ يتحرك تبعاً لها كل هؤلاء الرجال وهذا المال وهذه المواد في عصر كان من أكثر العصور الانسانيـــة اضطرابا، فأسرار الادارة والمـالية والحرب والديبلوماسية قد جذبتني اليها واستوقفتني وأسرتني. وقد اعتقدت أن هذا الجزء الفني من التاريخ يستحق عناية من النفوس الجديدة مثلما يستحق الجانب الدراماتيكي سواء بسواء. وفي رأيي أن المدح أو الذم اللذين نصبهما على حوادث التاريخ الكبيرة ليس الا خطبا عقيمة، وذلك مالم يستندا الى عرض منطقي موضوعي واضح للطريقة التي تمت بها هذه الاحداث. فالتهابك حماسة أمام عبور الألب مثلا، وتكديسك للالفاظ وتثرك للصخور هنا والجليد هناك لكي تحمل الغير على مشاركتك حماستك ليس في نظري

لا عبث أطفال بل مصدر ملل للقارىء. فلا جدوى ولا جدوى فى إثارة اعجاب حقيق إلا بالعرض الدقيق الكامل للأشياء كما وقعت. كم من الفراسخ عبرت خلال الجبال وكم من المدافع والذخائر والمؤن حملت دون طرق معبدة الى المرتفعات الخارقة وسط الهاوى المفزعة وهناك لا تستطيع الحيوانات أن تصعد. وإنما يحتفظ الإنسان وحده بقوته وإرادته. هذا هو ما يجب أن نقوله بأبسط أسلوب مع الحرص على التفصيلات الضرورية دون غيرها وذلك إذا أردنا أن نقص مغامرة كعبور سان برنار مثلا. وحين ينتهى القاص من عرض دقيق كامل للوقائع وتفلت من فمه عبارة إعجاب لا شك أنها ستذهب رأسا إلى قلب القارىء. وذلك لأن الاعجاب كان قد تولد فى نفسه بالفعل ولم تأت عبارة القاص إلا استجابة لذلك الاعجاب.

٣ — ملاحظة الحاضر: لا أعلم من نتائج الروح البشرية ما هو أجل من شعر الملاحم، ولكننى أحب أن يسلم معى القارىء أن هناك عصوراً أقدر على تذوق ذلك الشعر منها على خلقه. فما أظن أن هوميروس، ودانت قد تذوقا على نحو أرهف مما يتذوقا فى عصرنا الحاضر الذى يجمع إلى الدقة العلمية القدرة على الانفعال. وبالرغم من أن لدينا الشعراء والمصورين الممتازين فان عصرنا لم ينتج مثل ذلك الشعر الساذج القوى الذى أنتجته فلورنسا فى القرن الثالث عشر، و الاغريق الفطرية

فللجماعات أعمارها كما للأفراد ، ولكل عمر مشاغله . ولقد نظرت دائما إلى التاريخ على أنه الشاغل الذى يلائم عصرنا بنوع خاص وإن لم يكن طبعا الشاغل الوحيد . فنحن لم نفقد المقدرة على الاحساس بكبار الحوادث ، وفى عصرنا ما هو كفيل بردها إلينا لو أنها كانت قد فقدت . ثم إننا قد اكتسبنا من التجارب ما يمكننا من تقديرها والقضاء فيها . ولهذه الاعتبارات أسلمت نفسى فى ثقة منذ الحداثة للأبحاث التاريخية وأنا مطمئن إلى أنى أعمل مايلائم طبيعة هذا العصر . لقد خصصت ثلاثين عاما من حياتى لكتابة التاريخ وباستطاعتى أن أقول إننى لم أتخل عن فنى حتى عشت فى غمار الحياة العامة ، وعندما كنت أرى العروش ترنحها ، وسط المجتمعات المهتزة ، نعمات الخطباء الأقوياء أو تهددها صيحات الجماهير ، ثم أننى حين كنت أجد لحظة للتفكير ، كنت لا أرى هذا الرجل الفانى أو ذاك ، بل تلك الوجوه الخالدة التى كانت تتحرك فى الأزمنة والأماكن كلها بأثينا أو روما أو فلورنسا كما يتحرك أولئك الذين يقع عليهم بصرى سواء بسواء . وكان فى ذلك مايخفف من غضبى أو اضطرابى وذلك لأننى لم أوخذ على غرة ، ولا رأيت أحداثا يومية عابرة ، بل مشاهد خالدة أقامها الله عند ما وضع الإنسان فى الهيئة الاجتماعية ووضع فى قلبه ما يحركه من شهوات كبيرة أو صغيرة حقيرة أو كريمة

والانسان دائم الشبه بالانسان . تثيره وتقوده القوانين العميقة الخالدة فباستطاعتى أن اقول إن حياتى ذاتها قد كانت دراسة تاريخية طويلة . وفيما عدا اللحظات العنيفة التى يذهلنا فيها العمل ويحتاحنا تيار الحوادث الجارف حتى نعجز عن تبين شواطئه — أستطيع أن أقول إننى قد لاحظت دائما ما يمر حولى . ووازنت بينه وبين ما حدث فى غير زماننا لأميز فيه المتشابه والمختلف . وفى هذه المقارنة الطويلة خير إعداد للنفس حين تريد كتابة ملحمة التاريخ . تلك الملحمة التى لا يمكن أن يتصل لونها لأنها دقيقة الموضوع . وذلك لأن الرجل الحقيق الذى يسمى الإسكندر أو هانيبال أو قيصر أو شرلمان أو نابليون له شعره الخاص كما للرجل الأسطورى الذى يسمى أخيل أو إنيوس أو رولان أو رينو . شعره . وإن تميز الشعران

٤ — الذكاء فى التاريخ : ملاحظة الرجال والحوادث ملاحظة متصلة أو كما يقول المصورون ملاحظة الطبيعة لا تكفى . واذا لا بد لمن يريد كتابة التاريخ من موهبة خاصة ... ولكن ما هى هذه الموهبة؟ أهى لطافة الحس أم الخيال أم ملكة النقد أم فن التأليف أم القدرة على التصوير ؟ أجيب أن كل هذه المواهب مرغوب فيها . وأن أى تاريخ تظهر فيه احدى تلك الصفات النادرة يعد مؤلفاً جديرا بتقدير المعاصرين والأجيال اللاحقة على السواء . وفى استطاعتى أن أقول إن

هنالك طرقا كثيرة لكتابة التاريخ . فقد نكتب على طريقة توسيديد أو إكزنفون أو بوليب أو تيت ليف أو سالونت أو قيصر أو تاسيت أو كومين أو جوشاردان أو ميكافيللى أو سان سيمون أو فردريك الأكبر أو نابليون . وفى كل حالة يكون تاريخاً ممتازاً وإن اختلف عن غيره . وأنا لا أسأل الله إلا أن أكون قد كتبته كأقل هؤلاء امتيازاً لأكفل بذلك أننى وفقت صنعاً . وأنى سأخلف بعدى ذكرى لحياتى الفانية . ولكل من هؤلاء صفته الخاصة البارزة . فمنهم من يقص فى وفرة تشتاقك . ومنهم من يقص دون اطراد فيسير بوثب وقفزات ولكنه يصور بتخطيطات عابرة وجوها لن تمحى من ذاكرة الرجال ومنهم من هو أقل وفرة فى القصص أو مهارة فى التصوير ولكنه أكثر هدوءاً وأغزر حياء فينفذ ببصر لا يغيب عنه شىء إلى أعماق الحوادث البشرية ويضيئها بنور خالد . « يفكر تيير هنا فى تيت ليف وتاسيت وجوشاردان » . وأيا ما تكون طريقتهم فانى أكرر أنهم قد وفقوا صنعاً . ولكن أليست هناك صفة تفضل ما عداها من صفات حتى يتميز المؤرخ الذى يملكها تميزاً حقيقياً ؟ ذلك ما أعتقده . وأسارع فأقول إن هذه الصفة فى نظرى هى الذكاء .

وأنا أستعمل هذا اللفظ بمعناه الدارج وأطبقه على الموضوعات المختلفة حتى يفهمنى القارىء . كثيراً ما نلاحظ عند الطفل أو العامل

أو رجل الدولة شيئا لا نستطيع أن نسميه لطافة الحس. لأن البريق يعوزه ولكننا نسميه الذكاء. وذلك لأن من وهبه يدرك لفوره ما يلقى اليه ويرى المحسوس ويسمعه. فيفهم إذا كان من رجال الدولة فهم الحوادث وأسبابها ونتائجها، وحدس طبائع الأشخاص وميولهم وما تمليه تلك الطبائع والميول من سلوك حتى لا تراه يندهش لشيء أو يتعثر فى شيء وإن أحزنه فى الغالب كل شيء. وهذا هو الذكاء. وهذه الصفة البسيطة التى لا تسعى الى البريق لن تلبث عند العمل أن تظهر أعظم جدوى من كافة الصفات فيما عدا العبقرية التى ليست فى الحقيقة إلا الذكاء مضافا اليه الاشراق والقوة والاتساع والسرعة.

وهذه الصفة، مطبقة على حوادث التاريخ الكبرى، هى الصفة الأساسية الواجب توفرها فى المؤرخ. وهى إذا وجدت استتبعت خلفها كافة الصفات الاخرى، وذلك بشرط أن نضيف إلى الهبة الطبيعية تجربة الحياة العملية، فنحن بهذه الصفة نستطيع أن نميز الحق من الباطل وألا ننخدع بالكاذب من مسلمات التاريخ التقليدية وضوضائه الخاوية، بل نحكم ملكتنا الناقدة فندرك فى دقة خصائص الافراد والعصور، ولا نبالغ فى شيء تعظيما أو تحقيراً بل نعطى كل شخصية قسماتها الحقيقية ونتحى الطلاء الذى لا نعرف أشد منه خطراً على التاريخ. وبالجملة نصور الحقيقة تصويراً صادقا. وندخل فى اسرار الأشياء

ونفهم كيف سارت ونعين الغير على هذا الفهم . فالدبلوماسية والإدارة والحرب والبحرية نضعها كلها فى متناول جمهرة النفوس وذلك لأننا نكون قد استطعنا أن ندركها ككل قابل للفهم . وعند ما نصل إلى جمع كافة العناصر التى سنؤلف منها قصصنا الواسع يدلنا تسلسل الحوادث ذاته على الطريقة التى نستطيع أن نعرض بها ذلك القصص وذلك لأننا عند ما ندرك الروابط الخفيـــة التى تجمع بين العناصر والأسباب التى جعلت بعضها يتولد عن بعض تتكشف لنا طريقة العرض بنفسها ، وتكون أجمل الطرق لأنها الطبيعية . وإذا لم يكن فى تيار حياة الأمم جبال من الثلوج استطاع المؤرخ أن يمزج كل تلك العناصر مزجا تاما ، وأن يسلسلها فى يسر وحيـــوية تاركا لسير الزمن تدفقه وقوته بل وجماله ، وذلك لأنه لن يحيد قسراً بحركاته عن مجراها الطبيعى ولن يغير شيئا من تأنيه الموفق . وهو أخيراً سيتمتع بأهم واسمى شرط لازم للمؤرخ وهو العدل . وذلك لأنه لاشىء يقتل فى النفس الأهواء مثل معرفة الطبائع البشرية . ولست أزعم ان هذه المعرفة ستسقط عن النفس كل قسوة . ولو أن ذلك حدث لرأيته شراً ولكننا عندما نعرف الإنسانية ومواضع ضعفها ونذرك ما يسيطر عليها ما يقودها . نستطيع — مع حبنا للخير ومقتنا للشر — أن نكون أرفق بالإنسان الذى تسوقه إلى الشر آلاف من الدوافع البشرية . كما

نقدس ذلك الذى استطاع وسط المغريات الحقيرة وبالرغم منها أن يحتفظ بقلبه مرتفعاً إلى مستوى الخير والجمال والعظمة »

المسلمون والتاريخ القديم

صحيح أن العرب و المسلمين لم يقفوا على الطريقة العلمية الحديثة فى التنقيب عن الآثار كما اوضحنا قبلا لأن هذه الطريقة وليدة العصر الجديد ـ غير انه قد قام من المسلمين الرحالة الآتى ذكرهم هنا :

١ - ياقوت الحموى وهو مؤلف القاموس الجغرافى التاريخى المشهور «معجم البلدان» الذى وصف كل ما وقعت عليه عيناه فى رحلاته الثلاث فى ارجاء العالم الاسلامى وما جاورها من الاقاليم . وضمنه كثيرا من تراجم الناس فى اثناء ذكره للبلاد التى ولدوا فيها او نسبوا اليها

٢ - المسعودى الذى ارتحل الى بلاد فارس سنة ٩١٥ م ثم الى الهند والتبت وجزيرة سرنديب « سيلان » ثم عاد الى الغرب فزار بلاد الروم وسوريا وفلسطين ومصر والسودان . ووصف جميع هذه البلاد فى كتابه المشهور « مروج الذهب »